VOLUME 7, AUGUST 2014

الإشـــراق

مجلّة الدّراسات العربيّة والإسلاميّة

AL-ISHRAQ

JOURNAL OF ARABIC AND ISLAMIC STUDIES

Nasarawa State University, Keffi, Nigeria.

NASARAWA STATE UNIVERSITY

KNOWLEDGE FOR DEVELOPMENT

A JOURNAL OF THE ARABIC AND ISLAMIC STUDIES DEPARTMENTS

Nasarawa State University, Keffi, Nigeria.

ISSN 2006 – 6554

منهج الإمام الغزالي في المعرفة – نشأته وتطوره

إعداد

الدكتور عبد الله إبراهيم صلاح الدين

معهد التربية ، جامعة ولاية كوارا مليتي

المقدمة

تعتبر الأزمة الفكرية أخطر ما أصابت الأمة العربية والإسلامية ،سُدت بسببها سبل الابتكار التي تقود إلى التقدّم الحضاري والتقني والاقتصادي والسياسي وغيرها،ويسبب ذلك ابتعاد أو عدم معرفة منهج إسلامي صحيح فى إعمال الفكرالذي ميز الله به الإنسان ،وتجيء هذه الدراسة لتوضح منهج المعرفة عند الإمام الغزالي كنموذج إسلامي فى تأصيل المعرفة والاستفادة منها فى التطبيقات العملية وذلك عن طريق الإجابة عن الأسئلة التالية

- ما حد المعرفة اليقينية عند الغزالي ومتى تصح المعرفة عنده ؟
- ما هي الوسائل للوصول إلى المعرفة ؟
- وما هي طبيعة المعرفة التي يدعو إليها الغزالي؟
- وهل يقبل منهج الغزالي التطبيق ؟

وتأتي أهمية هذه الدراسة فى أنها تمثل نصف الكلّ،لأن الأعمال تتبع المعارف، فقضايا الإيمان كلها معارف وقضايا الأعمال كلها تطبيق المعارف ،ففى ذلك يقرن الله تعالى الإيمان الذي يمثل المعرفة بالعمل الذي يمثل التطبيق وقال تعالى: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا" (الكهف 107).

وقد عنونت هذا البحث بـ"منهج الإمام الغزالي في المعرفة – نشأته وتطوره" إشارة إلى النشأة والتطور المرحلي في منهج الإمام الغزالي للمعرفة ،فمن الحس إلى العقل ثم إلى البصيرة والوحي، وليس المقصود منه ما قد يتبادر في الذهن من النشأة التاريخية والتطور التاريخي. وبما أن الباحثين قد تناولوا الإمام الغزالي من عدة أوجه فإن الباحث في هذه المقالة يستفيد من الدراسات السابقة في تناول الجانب المعرفي عنده من حيث المنهج.

إمكانية الوصول إلى المعرفة ، حدودها ، وصحتها

اختلف العلماء بعد الأخذ والرد فى حد المعرفة اليقينية وكذلك صحتها ،وانقسموا جراء ذلك إلى مذهبين رئيسيين ، هما : مذهب العقليين والتجريبيين ، مذهب أصحاب الشك المنهجي

أولاً : مذهب العقليين والتجريبيين

اعتبر أصحاب هذا المذهب العقل مصدرا رئيسيًا للمعرفة اليقينية ، ويرون أن لدى الإنسان القدرة علي معرفة الأشياء معرفة يقينية إما بواسطة الإدراك الحسّي أو التفكير ، كما أنهم يجزمون بصدق المعرفة المكتسبة عن طريق الحواس أو العقل بدون إخضاعها للاختبار[1] ، فعلي هذا ،المعرفة عندهم تكون معرفة بظواهر الأشياء.

وقد اعترف القرآن الكريم بذوي العقل المفكّر فأشاد بهم الله سبحانه وتعالى بعبارات مختلفة فى مواضع شتى: " أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

مَسَاكِنِهِم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى" (طه: 128) ، وفوله: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء الأرض لآياتٍ لقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (البقرة: 164)، وحماية لسلامة عقل الإنسان حرم الله سبحانه وتعالى الخمر لما يصاحبها من الضرر المؤدي إلى فقد الوعي فى الصلاة فقال: "يآأَيُّهَا الذَّينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ"(النساء: 43). وقال سبحانه وتعالى منددا بالذين لا يفكرون ولا يستعملون عقولهم فى الخير والمعرفة: "إِنَّ شَرَّ الدَّوابِ عِنْدَ اللهِ الصُّمُ البُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ" (الأنفال: 22). وقد عرض القرآن آيات الله في الكون .. عرضاً ربَّى العقل على حسن المعرفة ، والمنطق العلمي ، والفكر الاستدلالي ، والمنهج التجريبي .

أما الإمام الغزالي فإنه لم يختلف رأيه في أن للإنسان القدرة على اكتساب المعرفة إما عن طريق الحواس أو العقل ، ولكنه يرى أن الحواس قاصرة عن الإدراك الحقيقي ، ولا تؤتمن ، لأنها لا تدرك الأشياء إلا بمماسة ،أو بقرب منها كما أن العقل لا يؤتمن إلا إذا كان منقاداً للعلم والحكمة ، وصار مسيطرا على الشهوات فيما يفتقر العقل إليه ، لأن الإنسان إذا أدرك بعقله عاقبة الأمر وطريق الصلاح انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة ، وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها ، وذلك غير إرادة الشهوة أو إرادة الحيوانات بل يكون ضد الشهوة ، فإن الشهوة تنفر مثلا من الفصد والحجامة ، والعقل المسيطر على الشهوة و المسخر للحكمة يريدها ويطلبها بل يبذل المال فيها . ولو خلق الله العقل العارف بعواقب الأمر ، ولم يخلق في الإنسان الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى الحكمة لضاع العقل علي التحقيق [2].

هذا هو موقف الإمام الغزالي من المدرسة العقلية والتجريبية ، فموقفه هذا – فيما يبدو – موفق وسط بين إعمال العقل و إهماله، فإنه لم ير تفويض الحكم المطلق للعقل بحيث لا يختبر ، بل قيّد صحة حكم العقل بشرط موافقته للحكمة والعلم و مخالفته لهوى النفس وشهواتها.

ثانيا: مذهب الشك المنهجي

الشاك هو ذلك الشخص الذي لا يرى إمكانية الوصول إلى المعرفة الحقيقية ولا يعترف بأن هناك طريقا يوصله إلى المعرفة ، مع أنه يفرض وجودها[3]، ويرأس هذا المذهب الشكي الفيلسوف الفرنسي ؛ رينيه ديكارت ، في مطلع عصر النهضة ، حيث نادى بأن الوصول إلى المعرفة يتطلب الالتزام بعدة قواعد : قاعدة البداهة والوضوح ، قاعدة التحليل ، قاعدة التركيب ، قاعدة المراجعة والإحصاء ، واستخدام الشك المنهجي"[4].

وينكر أصحاب مذهب الشك قيام المعرفة اليقينية أصلاً ، ويرون أنه لا يمكن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، ذلك لأنهم فقدوا ثقتهم بالحواس ، وظلوا يوجهون الإدراك الحسي من أجل بناء نمط من التفكير العقلاني ، والعقل عندهم متفاوت القدرات فى إدراك المعلومات ، فبالتالي ظلوا حيارى و يئسوا من إدراك المعرفة اليقينية ، وجعلوا الفرد مقياسًا للمعرفة ، لكنهم مع ذلك أخذوا يستخدمون الطرق العلمية للبحث عن المعرفة رغم إيمانهم بأن هذه المعرفة احتمالية وليست يقينية[5].

ولقد بلغت الحيرة بهؤلاء حتى قالوا :"ينبغي لنا أن نتخلى عن محاولتنا للوصول إلى الحقيقة النظرية ،وأن نركز طاقاتنا على المسائل العملية،والقواعد الاحتمالية"[6]. بل أكدوا على يأسهم في المعرفة قائلين :"ولما كانت دعوى امتلاك الحقيقة الموضوعية عن وجود الأشياء ومعيار السلوك الإنساني تؤدي حتما إلى المنازعات والصراع ،فينبغي

للرجل الحصيف أن يتخلى عن هذه الدعوى القاتلة "[7].

فهذا اليأس المعرفي والحيرة المفترضة هي التي جرت الشاكين الغربيين إلى الاصطدام مع المسلمات العقلية حتى رفضوا ما صحت من أخبارها وأدت بهم إلى الرذائل وحطوا عن مستوى الإنسانية ؛ذلك لأنهم يعتقدون ويقولون :"فبدلا من أن يختبر العقل المتشكك صحة أي قضية مطروحة اختباراً مباشرا ،يركز على وضع هذه القضية في علاقة تضاد مع قضية أخرى، وعلى هذا النحو تعامل القضايا جميعا على أنها متساويا في الاحتمال وعدمه. وبهذا يمنع العقل من إبداء تسليمه التام بأية عبارة تطلق على الواقع"[8].

ويمكن الآن الخروج بالفرق الجوهري بين مذهب الغزالي ومذهب الغربيين: فالغزالي يشك في كل ما سوى الله تعالى وصفاته ، وانتهى به طول الشك إلى اليقين كما بينا ،بيد أن شك الفلاسفة الغربيين لا نهاية له مما جعلهم حيارى حتى في ذات الله، وقد توصل زعيمهم الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارات ؛علي سبيل المثال إلى إثبات وجود الله تعالى في أحسن اعتقادهم في الله ، بقوله : "أنا أشك، والشك دليل نقص ، فمن أين جاءتني فكرة النقص إن لم يكن لدي فكرة عن الكمال ؟ وهذا الكمال هو الله تعالى"[9].

فأقل ما يقال في مذهبهم هذا :أن أدنى المؤمنين إيمانا بالله لا يمكنه التدني إلى هذا المستوى من الاستدلال الساذج بالشك في إثبات وجود الله تعالى؛لأنه نظرية مجردة عن كل معاني التطبيق ،فهل يقارن هذا مثلا بمن انكشف لهم من معلومات الله تعالى ، وعجائب مقدوراته ،وبدائع آياته في الدنيا والآخرة ،والملك والملكوت؟ كما ذهب إليه الغزالي! فإن الشك في هذا الموضع يقين لأنه تعالى چ ﭐﭑﭒﭓﭔﭕ چالشورى: ١١، وقال: چ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ چ البقرة: ٢٥٥، فإن يكن هذا شيء ،

فإنما هو نتيجة سلوك الغزالي مسلك الشك ثم لم يرض لنفسه اليأس عن المعرفة حتى تجاوزه إلى المعرفة اليقينية المؤيدة بالبرهان والتي لا يزحزحها أي شك ولا ارتياب. ويلاحظ أن الشك عنصر مهم من عناصر بلوغ المعرفة عند الغزالي، فمن لم يشك في اعتقاده فلا يتصور نهوضه إلى المعرفة أصلاً ؛ لأن من لم يشك لم ينظر ولم يبصر، ويبقى في التقليد أبداً.

يمكن التعقيب على هذا المذهب بأنه خال من التطبيق ولا تزال هذه المدرسة في الحيز النظري ؛ لأن من عرف وجود الله مثلا عن طريق الشك المنهجي –كما سبق ذكره– لا يتوقع رسوخ إيمان وجود الله في نفسه ، بما أن المعرفة بالشيء يلزم الجزم بها بالبرهان القاطع دون فرض المعرفة ، ونتيجة عدم يقينية المعرفة عند أصحاب هذا المذهب ،أنهم جعلوها احتمالية ،ولا يكاد يلتفت إلي هذه المدرسة البتة كوسيلة للمعرفة إلا عند عدم وجود أيِّ معرفة محققة علميًّا.

ويضاف إلى هذا بأن الذي حدث للفلاسفة الشاكين كما سبق ليس الشك بمعناه الاصطلاحي في المعرفة وإنما هو الشك بالمعنى اللغوي الذي يفيد معنى الريب .والريب في المعنى الشرعي لم يرد نص بمدحه ، كما أنه لا يحصل لأهل اليقين نحال في إيمانهم، والقرآن يقول: چ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ چ البقرة: ١ – ٢ ،وقال تعالى : چ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ چ العنكبوت: ٤٨ ،فبهذا يتضح الفرق بينهم وبين الغزالي.

قال الإمام الغزالي في حق هذا المذهب بعد نقده الشديد للتقليد ودعوته إلى الاستقلال في النظر، ما نصه :"ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعًا ، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق

، ومن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمي والضلال"[10].

يبدو من هذا أن الإمام الغزالي قد استفاد من الشك غير أنه انتهجه كمذهب وجعله وسيلة توصله إلى العلم اليقيني ، بعد ما جعله أصحابه غاية توقفوا عنده.

فقد اتخذ الإمام الغزالي موقفه من هذه المدرسة ، حيث لم ينكر إمكانية الوصول إلى المعرفة رأسًا ، ولكنه يرى أن حقيقة المعرفة المطلقة ليست بمتناول أيد البشر ، اللهم إلا على السبيل المجازي أو التشبيه غير الحقيقي ، أما على سبيل المطلق الحقيقي -الذي يفيد الإحاطة - فمستحيل والطريق إلى ذلك مسدود ، ذلك لأنه لا يمكن للإنسان أن يفهم شيئا إلا إذا كان فيه خاصية تناسبه ، فيعلم أولا ما هو متصف به في نفسه ثم يعلم غيره بالمقايسة. فإذا كان لله تعالى خاصية ووصف وليست في الإنسان ما تناسبه وتشاركه في أي وجه من الأوجه لم يتصور فهمه البت.

وقد مثل الإمام الغزالي بالمعرفة المجازية التي يمكن للإنسان الوصول إليها ، أنها هي بحيث لو أشار المشير إلي شيء ، وقال ما هو؟ فذكر الأشياء المشتقة ، يكون ذلك غاية المعرفة المجازية لذلك الشيء ، بخلاف المعرفة الحقيقية التي تكون هي ماهية حقيقة ذلك الشيء . فلو أشار إلى شخص مثلا وقال : ما هو ؟ فقيل : طويل أو أبيض أو قصير ، أو أشار إلي ماء أو النار، وقال : ما هي ؟ فقيل : بارد أو حار ، فكل ذلك ليس بجواب عن الماهية البتة ؛لأن المعرفة بالشيء هي معرفة حقيقته وماهيته دون معرفة الأسامي المشتقة ، فماهية النار : شيء مبهم له وصف الحرارة[11].

فاكتساب المعرفة المجازية في رأي الإمام الغزالي مفتوح وممكن لكل الناس ،إلا أنهم يتفاوتون فيها –حسب قربهم وبعدهم عن الله سبحانه وتعالى- إذ ليس من يعلم أن الله تعالى عالم قادر على الجملة بدون أي برهان ، كمن شاهد عجائب آياته

سبحانه وتعالى في ملكوت السماوات والأرض ،وخلق الأرواح والأجساد ، واطلع على بدائع المملكة الربانية، وغرائب الصنعة الإلهية.. ممعنا في التفصيل ومستقصيا دقائق الحكمة، ومستوفيا لطائف التدبير ، ومتصفا بجميع الصفات الملكية المقربة من الله تعال[12].

فمثال المعرفة الحقيقية في رأي الإمام الغزالي كمثل قول الصبيّ أو العنين : ما السبيل إلى معرفة لذة الوقاع ،وإدراك حقيقته ؟فيقال له : هاهنا سبيلان : أحدهما طريقة الوصف والآخر طريقة المباشرة ، وهذا السبيل الثاني هو السبيل المحقق المفضي إلى حقيقة المعرفة ،أما السبيل الأول فلا يفضي إلا إلى وهمٍ[13]. والطريق الثاني المفضي إلى حقيقية المعرفة المطلقة فمستحيل الوصول إلي الله به ، لأنه تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الشورى: 11) ، فلا يعرف الله إلا الله ولا يعرف أحد حقيقة الموت ، وحقيقة الجنة وحقيقة النار إلا بعد الموت ودخول النار والجنة ؛ لأن النار أسباب مؤلمة ، والجنة عبارة عن أسباب ملذة ، وكذلك كل ما سمع الإنسان اسمه وصفته، وما ذاقه وما أدركه و ما انتهى إليه علمه وما اتصف به[14] .

بناءً على هذا ، يرى الإمام الغزالي أن نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة أنهم لا يعرفون ، وحتى لو انكشفت لهم العلوم انكشافًا برهانيًا ،فإن ذلك بلوغ المنتهى الذي يمكن في حق الخلق معرفته . واستدل الإمام الغزالي في ذلك بقول سيدنا أبي بكر الصديق أنه قال : " العجز عن الإدراك إدراك " وقول النبي صلى الله عليه وسلم : ".. لا أُحْصِي الثَّنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ "[15].

يلاحظ من خلال استعراض آراء الإمام الغزالي – فى هذا الصدد – أنه عظّم أمر المعرفة وجعلها أمرًا رفيع الشأن عسير المنال ، بَيْدَ أن مع استحالة الوصول إلى المعرفة المحيطة المطلقة ، لم يستبعد الإمام الغزالي الوصول إلى المعرفة المجازية التي فيها

يهيم جميع الأنبياء والأولياء بتفاوت درجاتهم ، ولا أحد منهم ولا من غيرهم يصل إلى الحقيقة المحيطة المطلقة التي استأثر الله بها ، ولا يحيط بها أحد إلا الله ، يقول الله تعالى: "ولاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ" (البقرة: 255)، فإن يكن هذا شيئًا ، فإنما هو نتيجة سلوك الإمام الغزالي مسلك الشك ثم لم يرض لنفسه اليأس عن المعرفة حتى تجاوزه إلى المعرفة اليقينية المؤيدة بالبرهان والتي لا يزحزحها أي شك ولا ارتياب.ويلاحظ أن الشك عنصر مهم من عناصر بلوغ المعرفة عند الإمام الغزالي ، فمن لم يشك فى اعتقاده فلا يتصور نهوضه إلي المعرفة أصلاً ؛ لأن من لم يشك لم ينظر ولم يبصر ،ويبقى فى التقليد أبداً .

جاءت الآيات القرآنية لتؤيّد رأي الإمام الغزالي – بهذا الخصوص- حيث قسّم الله تبارك وتعالى المعرفة إلى ثلاثة ، قسم سماه علم اليقين ؛ وقسم سماه عين اليقين ؛ وقسم ثالث سماه حق اليقين . فقد استأثر الله تعالى وحده بحق اليقين من دون خلقه ، وجعل عين اليقين لخواص خلقه من الأنبياء والأولياء ،وعلم اليقين درجة بقية العلماء والنظار وغيرهم من الناس ،فتجمع هذه الدرجات الثلاث هذه الآيات التالية:"إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ" (الواقعة: 95)، وقال تعالى أيضًا: "كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ" (التكاثر: 5-7)

وقد تبيَّن من قصص بعض الأنبياء والصالحين التي أوردتها الآيات القرآنية ، أنهم انتهجوا منهج الشك للوقوف على صريح الإيمان الذي لا يتزلزل أبدا .ففي قصة أبي الأنبياء ؛ سيدنا إبراهيم عليه السلام ، نقرأ هذه الآية التالية : "وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَي كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَ اعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة: 260).

قال ابن كثير مفسرا هذه الآية :" ذُكر لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابٌ ، منها أنه لما قال لنمرود "ربي الذي يحي و يميت " أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلي عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة ، فقال: "رب كيف تحي الموتى ، قال أو لم تؤمن؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي" (البقرة: 258). فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني يوسف عن أبي شهاب ، عن أبي سلمة و سعيد عن أبي هريرة – رضي الله عنه–قال : قال رسول الله صلي الله عليه و سلم : "نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي". وكذا رواه مسلم عن حرملة بن يحي عن وهب به"[16].

شكُّ نبي الله إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتمَّ التسليم ، ليس فى إمكانية ووجود قدرة الله تعالى على البعث – فحاشاه–، ولكنه يشك فى كمال اعتقاده ذلك وجزمه به،وإلا لما طلب الدليل والبرهان والمشاهدة على ذلك ، وكذلك الإمام الغزالي لم يشك فى وجود الله ولا فى النبوة ولا يوم الآخرة ، بدليل قوله فى المنقذ من الضلال :" وكان قد حصل معي – من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها فى التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية – إيمانٌ يقيني بالله وبالنبوة وباليوم الآخر . فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسي ، لا بدليل معيّن محرر، بل بأسباب وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر [17]، ولكن الغزالي يطلب الكشف والبرهان والمشاهدة على صحة ما رسخت فى نفسه . ولقد جوز الإمام الغزالي أن يكون الشك فى كمال الإيمان لا فى أصله حيث يقول:" وكل إنسان شاك فى كمال إيمانه وذلك ليس بكفر، وشك فى كمال الإيمان حق [18]، فإذا كان قد جاز طلب المشاهدة والبرهان من الله تعالى ، لنبي من أنبياء الله تعالى– وهم أشرف خلق الله

تعالى على الإطلاق (عليهم الصلاة و السلام)- لم ير الباحث ما قد يمنع عالما من العلماء - مثل الإمام الغزالي — من طلب الكشف والبرهان والمشاهدة ، من خلال البحث والتفتيش فى العلوم الشرعية والعقلية، فإذا كان الشك فى ذلك حراما لما نسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ، ويراه هو وأصحابه أحق وأولى بالشك من إبراهيم .

وقد تشدد بعض الباحثين على مسألة الشك فى الإيمان والمعرفة من القدماء ناهيك عن المتأخرين ،ونسبوا الشاك إلى الإلحاد والزندقة والكفر ، ولعلهم فى ذلك لم يفهموا من الشك إلا المعني اللغوي الذي لا يراد به غالبًا فى المعرفة ، وإلا يكون ذلك مكابرة عن الحق ، وخاصة بعد رواية أصح الأحاديث سندا عن جواز الشك ، وينجم ذلك عادة من رسوب الكراهية الطائفية-فى النفس- الأمر الذي لا يجدي علميًّا عند التحقيق ، ولبعض الناس تجاه الإمام الغزالي في ذلك حظ أوفر ، حيث يكره بعض الناس مجرد ذكر اسمه استدلالا ، ويشمئز برؤية كتبه جهلاً وحمقًا.

ويعتقد الباحث هنا - حسب هذه الأدلة - أن الشك بالمعنى الاصطلاحي في المعرفة سنة ورثها الأنبياء كابرًا عن كابر، والشك بهذا المعنى يكون جعل الشاكّ شكَّه مطيّةً لبلوغ الكمال المعرفي .

(1) *وسائل المعرفة*

إن السلوك الصحيح تحدده المعرفة الصحيحة التي تُستمد منه ، والمعرفة لن تكون صحيحة حتى تصح وسائلها المستخدمة للحصول عليها، وبعبارة أوجز يقال : المعرفة هي الوسيلة ، فإن كانت وسيلة المعرفة بهذه الأهمية، فإنه يجدر الاهتمام البالغ في التأكد من صحتها وصحة استخدامها ؛ فكممن يمتلك وسيلة صحيحة ويخفق في

استخدامها استخداما صحيحا مما يجعله يتساوى مع فاقديها .ولقد تعددت مذاهب الفلاسفة تجاه وسائل المعرفة ، منها ما لم ير الوصول إلى المعرفة الصحيحة إلا عبر الحس أو العقل أو غيرها، الأمر الذي أنتج أنماطًا مختلفة من المعارف .

وستعرض هنا مواقف الفلاسفة من وسائل المعرفة عرضًا وجيزًا يقود إلى بيان رأي الإمام الغزالي فيها ،ثم المقارنة بينهما ،مع بيان موقف الإسلام من رأي الإمام الغزالي ، مستعينا في ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية – ما أمكن .

وتنحصر محاور هذه الوسائل في ثلاثة :- الحس -العقل -البصيرة.

الحس : قوة نفسانية مدركة في الإنسان ، وهي خمسة :السمع البصر،الشم، الذوق اللمس[19]. ولكل من هذه الحواس وظائفها الخاصة بها : وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الحواس باختلاف أنواعها في القرآن الكريم ، ليرينا أهميتها في اكتساب المعرفة يقول تعالى: " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (الأعراف: 179)

ولقد كان الحس وسيلة رئيسية عند طائفة الفلاسفة الحسيين والتجريبيين ، ويرون أن المعرفة الصحيحة تستمد عن طريق الحواس والإدراك التجريبي. نادى بهذا المصدر الحسي في عصر النهضة الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون في كتابه :"إله الجديد" ،وقد نادى بضرورة تطهير الفكر من الأوهام المسيطرة عليها[20]. ويري أصحاب هذا المذهب أن كل ما تدركه الحواس هو معرفة حسية ، وبتراكم هذه الإدراكات والمعارف تتكون تجارب الإنسان ،بل يرون أن العقل نفسه مع عظم شأنه ، يعمل فى إطار ما تمد به الحواس . وقد أعرب أحد الأشخاص البارزين الذين أنتجتهم هذه

المدرسة عن هذا الرأي ، بلهجة شديدة ، حيث يقول: "إن العقل يسبح مسافات بعيدة يفكر ويتأمل ، لكنه فى كل ذلك لا يخرج قيد أنملة عما أمدته به الحواس"[21].

كان الإمام الغزالي يحكي تجربته بالمعرفة الحسية ، وما آل إليه أمره ، فذكر أنه ظل يقتبس المعلومات عن طريق الحواس ، وأنه أتقن هذه العلوم المكتسبة عن طريقها ، ثم أمعن النظر فيها ما إذا كان يمكنه شك فيها أو الأمان منها من الخطأ ، ذلك أن المقصود هو العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ويرى فى نفسه أن لابد له من طلب حقيقة ، ما هي ؟ ومعياره فى ذلك : الأمان من الخطأ ، وكل علم لا أمان معه من الخطأ، فليس بعلم يقيني عنده[22]، فانتهى به طول الشك والنظر إلى أن اعترفت له الحواس بالعجز عن إدراك حقائق الأمور أو العلم اليقيني الذي هو الهدف عند الإمام الغزالي ؛ ذلك لأن أقوى الحواس — وهي حاسة البصر- تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه لم يتحرك بغتة واحدة بل على التدرج حتى تتوارى حالة الوقوف ، كما أنك تنظر إلى الكواكب، فتراها صغيرة ، ثم بالأدلة الهندسية تتبين أنها أكبر من الأرض[23]، هذا وأمثاله كثيرة يحكم الحس بإثباته، ثم يأتي العقل ويحكم بنفيه حكما لا سبيل لمدافعته ،فكل هذا دليل على خطأ الحواس ، ولا أمان مع الخطأ ، فبالتالي لا ثقة بكل ما لم يكن فيه الأمان.

نتج من هذا الرأي أن اعتبر الإمام الغزالي هذا النوع من الإدراك — المعرفة الحسية- إدراك البهيمة ؛وأن فيها نقص ، ويتبلور نقصانها فى أنها مقصورة على الحواس : والحواس معزولة عن الإدراك إذا لم يكن مماسة أو بقرب منها، فاللمس والذوق يحتاجان إلي المماسة ، والسمع و البصر و الشم احتاجت إلي القرب ، فكل الموجودات التي لا يتصور فيها المماسة و لا قرب ، فالحواس معزولة عن إدراكها.[24]

هكذا نرى أن الإمام الغزالي قد فقد ثقته جملة واحدة من الاعتماد علي الحواس فى المعرفة اليقينية ، اللهم إلا فيما خلقت لها ؛ وهي المحسوسات .

يلاحظ هنا ملاحظة لا غبار فيها ،أن هناك فرقًا واضحًا وبونًا شاسعًا بين رأي الإمام الغزالي وبين رأي الحسيين فى استخدام الحواس فى اكتساب المعرفة ،وتتمثل تلك الفروق فى النقاط التالية :-

-إن الإمام الغزالي كذّب الحواس فى كونها تدرك بها حقائق الأمور ، بَيْدَ أن الفلاسفة الحسيين أوثقوها .

-اعتبر الإمام الغزالي المعرفة الحسية أخس درجة المعارف ، حين صنفها من جنس إدراك البهيمة ، و هي المرجع الأساسي الذي يمد العقل بالمعارف عند الطائفة الحسيين.

- فالمعرفة الحسية عند الإمام الغزالي مكمَّلة بغيرها ، كما أن الحواس تكمَّل بغيرها من الوسائل ، والأمر خلاف ذلك عند الحسيين المستقلِّين بالمعرفة الحسية.

ولقد سبق ذكر بعض الآيات القرآنية التي ندّد الله بها الذين لا يستفيدون من أسماعهم وأبصارهم وبقية الحواس ، ففى تلك الآيات وغيرها من الأحاديث التي تضيق الفرصة عن ذكرها دليل بارز على أن الله تعالى خلق الحواس لنا لنستخدمها فى التفكر والتأمُّل وننظر نظرة تمحيص ، ونلاحظ ما حولنا ثم نمحص ذلك بعقولنا وأفئدتنا لنستخدم ما سخر الله لنا ،أي لنتربى تربية علمية على الملاحظة والمناقشة والاستنتاج والتفكير،فنجمع أكبر قسط من المعرفة والمخترعات ، وحينئذ نظفر بميزة الزعامة على الإنسانية كما ظفر بها أسلافنا[25] ولم يدع الإسلام قط الإنسان إلى الاكتفاء بوسيلة واحدة من وسائل المعرفة ولكنه يحرض المؤمنين بجمع أكبر قدر ممكن من الوسائل المعرفية ، عكس ما هو معمول به لدى معظم الفلسفات الحديثة.

العقل وسيلة للمعرفة

إن من المعارف ما تكتسب عن طريق العقل والتأمل الفكري واستنتاج حقائق غير مدركة بالحواس ،فالاستدلال العقلي مسلك من مسالك اكتساب المعارف والعلوم وما يرتبط بذلك من تحليل ،وتركيب ،وقياس ،واستنتاج ،وربط .وليست المعرفة الحقيقية إلا نتاج العقل وحده عند الطائفة المثالية التي تعتبر أقدم نظام فلسفي عرفه الإنسان ،وكذلك فرقة المعتزلة، بل كل العقليين جميعهم ،فالعقل عندهم وحده هو الذي يستطيع أن يمدنا بالمعرفة الحقيقية ، والإنسان عندهم قادر على المعرفة الحقيقية من خلال عملية التفكير التي هي بناءً علي هذا يرى العقليون أن المعرفة الصادقة لا تكتسب إلا عن طريق العقل لا الحواس ،وأن المعرفة المستمدة عن طريق العقل هي المعرفة التي نستطيع أن نثق فيها ، فى حين كانت الحواس لا يمكن أن تكون وسيلة للمعرفة ؛لأن الحواس مضللة وخدّاعة ومخطئة ، ولا يمكن الاطمئنان على المعلومات الحاصلة عن طريقها[26].

يطلق "العقل" بالاشتراك على أربعة معان عند الإمام الغزالي ، كما يطلق "العين" مثلاً على معان عدة :

الأول :- إن العقل وصف الذي به يفارق الإنسان عن سائر البهائم ،وهو الذي يستعدّ به الإنسان لقبول العلوم النظرية ، والتدبير الصناعات الخفية الفكرية ،وبعبارة أخرى :إنه تلك الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لأدراك العلوم النظرية ،ويشبه نورا يقذفه الله فى القلب ، به يستعد لإدراك الأشياء .

الثاني :- إن العقل هو العلوم التي تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميِّز، بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، كعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد.

الثالث :- إن العقل علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال ، فإن من حنَّكته التجارب وهذبته المذاهب يقال له: عاقل : فى العادة ، ومن لا يتصف بهذه الصفة يقال له : غبيٌّ، أو غمرٌ أو جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا.

الرابع :- أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ،ويقهرها ،فإذا حصلت هذه القوة ، يسمى صاحبها عاقلا ،من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر فى العواقب[27] فقد قسم الإمام الغزالي العقل من حيث المصدر إلى قسمين :- الغريزي والمكتسب .

فالأولان هما :كونه وصفا لما يفارق الإنسان عن سائر البهائم ،وكونه علما يخرج فى ذات الطفل المميِّز)، أساسهما الطبع ، والأخيران، وهما:علوم تستفاد من التجارب ، والقوة الحاصلة من قمع الشهوات العاجلة)، أساسهما الاكتساب ، ويرى الإمام الغزالي أن التفاوت والزيادة تكون فى كل هذه الأقسام إلا القسم الثاني الذي يعتبر علما يخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميِّز ،والناس فى ذلك النوع سواء. ولقد اعتبر الإمام الغزالي المعنى الأول من معان العقل الذي هو القوة التي يستعد بها الإنسان لإدراك الأشياء من العلوم النظرية -أساسا، وسماه "نور البصيرة"[28] .

هذا، وبعد أن شكك الإمام الغزالي فى ثقة الحواس خاض التجربة مع العقل ، ولندعه الآن يحكي لنا تجربته ومعركته مع "الحكم العقلي" ، قال الإمام الغزالي: " فقلت بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً ، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والإثبات لا يجتمعان فى الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديمًا، موجودًا معدومًا ،واجباً محالاً .فقالت المحسوسات : بما تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ؟ وقد كنتَ واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذَّبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على

تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر إذا تجلى كذب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلي ذلك لا يدل على استحالته" !!

هذا التفكير تفكير منطقي للغاية من جانب الإمام الغزالي ، لإبطال حاكمي الحس والعقل معاً ،إلا أن هذا البطلان عنده احتمالي —فى هذا الوقت– لأنه لم يستند إلى دليل غير وهمي ، لذلك نري أنه لم يقف عند هذا الحدّ ، بل أمعن نظره كرتين فى حاكم العقل لعله يجد فيه غير ذلك ممّا يشككه فيه ، فجعل يقول: فتوقفتْ النفس فى جواب ذلك قليلا ، وأيّدت إشكاله بالمنام ، وقالت: أما تراك تعتقد فى المنام أموراً، وتتخيل أحوالاً ،وتعتقد لها ثباتًا واستقرارًا ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم : أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ، فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل : هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها ؟

ولكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها [29]، فقد أيد الإمام الغزالي هذا الاحتمال بالأدلة من النصوص الشرعية ؛ منها قوله تعالى: "فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ، فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ" (ق: 22). وما روي أن رسول الله قال : "النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا" [30].

بهذا يرى الإمام الغزالي أن العقل مع عظم شأنه عاجزٌ عن إدراك ما وراء الطبيعة ، من الغيبيات التي هي من اختصاص الأنبياء ، لذلك يعتبر أسمى وظيفة العقل ، وفائدته وتصرفه هو أن يعرِّفنا عظم مكانة الأنبياء ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك حقائق المعارف اليقينية ، وأن يأخذ بأيدينا

ويسلمنا إلى الأنبياء الموحى إليهم المبصرين بعين النبوة، تسليم العميان إلى القائدين ،وتسليمَ المرضى المتحيِّرين إلى الأطباء المشفقين .وإلى هاهنا مجري العقل ومخطاه عند الإمام الغزالي ، والعقل معزول عما بعد ذلك إلا أن يفهم ما يلقي إليه الطبيب[31].

فخلاصة رأي الإمام الغزالي فى حاكم العقل هي أن للعقل نطاقا واسعا يدرك المعلومات أكثر وأوثق من الحس ، وأن حكمه أصدق بكثير من حكم الحس إلا أن إدراكاته مع اتساعها لم تدرك المغيبات وأمورا ما وراء الطبيعة ، مثل : النار ، والجنة ،والصراط ، والميزان وغير ذلك من الأشياء التي كانت مجالا لإدراك آخر وراء العقل وهو النبوة .

يمكن تحديد النقاط التالية بعد المقارنة بين رأي الإمام الغزالي ورأي العقليِّين : النقطة الأولى:إن موقف الإمام الغزالي من العقل أقرب إلى أن يجعل العقل أصل الإيمان بالشرع[32]، بينما يقدم المعتزلة وبقية العقليين العقل على الشرع . النقطة الثانية:الشرع أو الوحي هو الحاكم الأساسي عند الإمام الغزالي الذي يبنى عليه حكم العقل ، ثم يقبل حكم العقل أو يرفض حسب ما اقتضاه حال الشرع ، فى الوقت الذي يري العقليون أن حكم العقل موكَّل للتفكير المنطقي ، فكل ما حسنه العقل فهو حسن ، وما قبحه فهو قبيح ، بل لا بد أن يوافق الشرعُ العقلَ فى الحكم وإلا لا يطاع عندهم . النقطة الثالثة:لا يرى الإمام الغزالي استقلال العقل فى إدراك الحقائق المعرفية واستقلال العقل ضروري فى المعرفة عند العقليين .

هذا وقد جاء القرآن الكريم ليكون فيصل الحق بين الحق والباطل ، وليُرينا أي الفريقين أصوب رأيا ، إذ تبين باستقراء الآيات القرآنية والسنن النبوية أنها حافلة بالأمثلة التي تحث المسلمين على استخدام عقولهم وتفكيرهم فى الاختيار والتمييز

والمفاضلة ، وكذلك تحكيم العقل فى أمور لا نص شرعي قاطع فيها ، يقول الله تعالى :" يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم" (الحجرات: 1)، وقال : "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضي الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم" (الأحزاب: 36) وغيرهما من الآيات كثيرة تدل على عدم تحكيم العقل فيما ورد فيه نص قاطع.

أما الآيات التي تدل على استخدام العقل -عامة- كثيرة ،منها قوله تعالى :"وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فى أَصْحَابِ السَّعِيرِ" (الملك: 10).

النبوة أوالبصيرة

لقد رأينا فيما سبق كيف انتهت بالإمام الغزالي معركتُه مع حاكم العقل إلى الحيرة، وكيف حكم الغزالي بعجز العقل عن حل المعضلات الإلهية ، وعن تبديد الاضطراب ، فهل يصح أن يعتمد العقل – بعد ذلك – فى حل ما هو عاجز عنه و خارج عن نطاقه ؟!

فما أن وصل الإمام الغزالي إلى الحيرة ، حتى قذف الله فى قلبه قذفة نورانية ، بها أدرك أنه كان على السفسطة[33]، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بإرادة الله سبحانه وتعالى[34].

يرى الإمام الغزالي أن هذه القذفة مفتاح أكثر المعارف ، وقد استدل بقوله تعالي:" منْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ" (الأنعام: 125) وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فسَّر" الشرْحُ "هنا فى الآية بنور يقذفه الله تعالى فى القلب [35]، ولا فرق بين هذا النور– عند الإمام الغزالي- وبين العقل فى حال كماله ،إذ بنور البصيرة يعرف الله ويعرف صدق رسله كما هو شأن العقل الكامل الذي يصدق النبوة والأنبياء ، ويريد الإمام الغزالي بالعقل[الكامل] ما يريد بعين اليقين ونور الإيمان ، وأن

هذا العقل [الكامل] هو الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم ، حتى أدرك بها حقائق الأمور ،وأن التفريق بين المسَمَّيَيْن نتيجة صنعة الكلام وجهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ ،فتخبطوا لتخبط اصطلاحات الناس من الألفاظ[36].

فالبصيرة أو الكشف أو الإلهام أو المشاهدة أهم وسائل المعرفة عند الإمام الغزالي ، والمعرفة المتحصل عليها عن طريقها حقيقية وليست وهمية ، إذ لا يمكن أن يطرأ عليها الخطأ والغلط . وقد مثّل ذلك بوجود شخص فى الدار ،وأن تدخل الدار وتنظر إليه بعينك ، وتشاهده عن قرب ، وفى صحن الدار، فى وقت إشراق الشمس ، فيكمل لك إدراكه ، وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية ،ويختلف هذا عن رجل آمن بوجود الشخص فى الدار بالسماع ولم يره ،كما يختلف عمن سمع صوت الشخص ولم يشاهده[37].

ومن وظائف الكشف أو النور الإلهي ،عند الإمام الغزالي، المسارعة لنصرة العقل فى حالة الحيرة حتى لا يميل العقل فى حيرته إلى ما يملي عليه الهوى والوسواس[38].

والبصيرة بهذا المعنى أرفع درجة من الإيمان والعلم ،لأن الإيمان[39] قبول من التسامع بحسن الظن، وعلى هذا يمكن التشكيك فيه ، ذلك لأن اليهودي والنصارى والكفار أيضا يتلقون اعتقاداتهم من أبويهم بالتسامع

وحسن الظن ، دون النظر والاستدلال وطلب البرهان عليها ، ولا فرق بينهم وبين المسلمين فى هذا الشأن غير أن المسلمين اعتقدوا حقا ، ومال غيرهم إلى الخطأ فاعتقدوا باطلا ،فهذا معني قول رسول الله صلي الله عليه و سلم :"كل مولود يولد علي الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه"40، ويرى أن الذين حصلوا على الإيمان من هذا الطريق التقليدي من غير بحث عن الطرق البرهانية مسلمون

والحكم بإسلامهم واجب إذ إن ذلك الإيمان يكفيهم لدخول الجنة ، غير أن إيمانهم من جملة إيمان العوام[41].

أما العلم عند الإمام الغزالي ، فهو التحقيق بالبرهان ،وهو درجة قريبة من درجة العوام المقلِّدين ، لأنه ممزوج بنوع من الاستدلال ، وهذا الإيمان أيضاً قابل للتشكيك والتخطئة ، فقد مثل ذلك بالعنين الذي يتصور أن يعلم وجود شهوة الوقاع من غيره بالبرهان، فمن أين له أن يأمن أن تكون شهوة الوقاع مشابهة بشهوة الطعام ، فهذا –عنده – مثال إيمان المتكلمين[42].

والبصيرة ذوق وهي ملابسة الحالة ، وتعتبر طوراً آخر تحصل فيه عينٌ لها نورٌ، يَظهَرُ فى نورها الغيبُ[43] ، وأمورٌ لا يدركها العقل العادي ،وهذا ما يقصده الإمام الغزالي بخاصية النبوة ،والمعرفة والولاية[44]. وقد تُفتَح هذه البصيرة فى النوم أو اليقظة على حسب الطهارة الباطنة ، وخصائصها كثيرة ، فَبِهَا تُدرَك الأشياء على حقيقتها[45]، ولن تُنال هذه المعرفة إلا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتبدُّل الصفات ، ولا يتأتى كل ذلك إلا بالعلم والعمل المؤديان إلى السعادة الأبدية[46].

فالنبوة عند الإمام الغزالي ليست كما تصورها البعض علمًا خاصا بالأنبياء – عليهم وعلي نبينا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم – وغير مكتسبة ، إنما النبوة عنده على ضربين:

(أ)- نوع خاص بالأنبياء ، والرسول صلى الله عليه وسلم على قمة ذلك،وهي التي تستمد منها العلوم والمعارف كلها فدونها تبقى التكاليف باهظة ولا شيء يرام.

(ب)- ونوع آخر مكتسبة لعلماء الأمة المحمدية .

فالنوع الأول : هو الوحي السمائي الخاص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم علي ذروته ، لأن من فهم معنى النبوة وأكثر النظر فى

- إن النبوة أقسام ودرجة ،موهبة وكسبية وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى درجة النبوة على الإطلاق ،وهو أعرف الإنسان بربه.

إذا كان هذا هو رأي الإمام الغزالي ، فإن لغيره من العلماء آراءً يمكن المقارنة بينهم والموازنة بالمعيار الإسلامي .

لو رجعنا إلى موقف أبي يوسف الكندي[50] الذي يعتبر فيلسوف العرب ، ورأيه في النبوة والمعرفة لوجدنا أنه لم يقتصر من وسائل المعرفة على الحس والعقل بل أضاف إليهما الإشراق الذي تمثل قمته علم النبوة ،إلا أنه يؤكد أن هذا العلم خاص بهؤلاء الذين اصطفاهم الله ،أي الأنبياء ، وأن هذا الاصطفاء يجعل لعلمهم خصائص ذاتية تنأى به من أن يكون علما مكتسبا نتيجة البحث والدرس ، وأن النبوة علم بلا طلب،ولا تكلف ولا بحيلة بشرية ، ولا زمان ، بل مع إرادته جلّ وعلا ،بتطهير أنفسهم[51].

يلاحظ هنا أن النبوة عند الكندي لا تختلف كثيرا عن موقف الإمام الغزالي في أنها أهم وسيلة من وسائل المعرفة ،وأنها تنال بتطهير النفس إلا أنه خصص هذا العلم بالأنبياء فقط دون من سواء .

تطبيقات تربوية لمنهج الغزالي للمعرفة.

وبعد استعراض لمنهج الإمام الغزالي في المعرفة ، يلاحظ أنها تؤثر وتنعكس في المجالات كثيرة ،فلننظر إلى المجال التربوي كمثال لتطبيق هذا المنهج المعرفي : فإننا نرى أنه ينمي المواهب الاكتشافية لدي الطلاب عن طريق التعلُّم بنقد المفهوم وترتيب الحيثياتللوصول إلى فروض تساعد على حل المشكلات والذي يطلق عليه في التربيةبالتعلم بحل المشكلات (problem-solving method) والتعلم بالاستقصاء

(learning by inquiry) إذ كلتا الطريقتين بمثابة نوع خاص من التعلّم بالاكتشافأو التشكك الذي يبني الإمام الغزالي نظريته في المعرفة عليه ،ويعرّف بعض العلماء التعلم بالاكتشاف بأنه :"نوع من التعلم المقصود خلال حل المشكلات وتحت إشراف المعلّم ."وكما عرّف بعضهم التعلم بالاكتشاف أنه :" هو ذلك النوع من التعلم الذي يقوم فيه التلميذ بالدور الأساسي فى اكتسابه ،ويقتصر دور المعلم علي توجيه التلميذ وحفزه على القيام على عملية الاكتشاف."وإذا لم يقدم الأستاذ لطالبه أي توجيه أو قليل من التوجيه سمي الاكتشاف هنا بالاكتشاف الحر (Free-Discovery) ،أما إذا قدم الأستاذ على طالبه مزيدًا من التوجيه لطالبه يسمى الاكتشاف من هذا النوع بالاكتشاف الموجّه (Discovery – Guided)[52].

ومن المعلوم أن الشك عنصر مهم من عناصر بلوغ المعرفة عند الإمام الغزالي ، وكان من طبيعة هذا النوع من الشك أن يصاحبه الاستقصاء حتى يتوسل به إلى المعرفة ، فهذا له بعد تربوي حيث تتيح الفرصة أمام الطلاب للتفكير المنطقي المستقلّ للحصول على الحقائق بأنفسهم ،وتجعلهم مكتشفين ومبتكرين بعد ما كانوا منفّذين لأفكار غيرهم، كما تضع أمام الطلاب مشكلات تحتاج إلى حلّ ،وعلى الطلاب أن يخططوا بأنفسهم لحلها، ويناقشوها ويصمموا التجارب اللازمة ،ويجمعوا البيانات والنتائج ،ثم يبوبوها ويضعوا لها تفسيرا مناسبا ثم يطبقوا ما تعلموه فى المواقف الجديدة ، وتعتبر هذه الترتيبات الأولية نقاطًا مهمة منها تنطلق نظرية المعرفة لتربية القدرة الاكتشافية والابتكارية لدي الطلاب والأكاديمين بصفة عامة.

الخاتمة .

يتضح لنا من خلال المحاور المعروضة عن منهج الغزالي فى المعرفة : إمكانية المعرفة وحدها وصحتها ،ووسائل المعرفة ،وطبيعتها ،وكذلك تطبيقات تربوية لمنهج

الغزالي فى المعرفة- أن الغزالي سلك مسلكا ابتكاريا ليس فقط فى الجمع بين الوحي والواقع لكن فى تأصيل علوم الوحي وجعلها منبعا يستقى منه وتؤول إليه العلوم الكونية كلها،فهو ممن لم ير استحالة المعرفة الحقيقية ولكنه يرى أن الشك الذي يقود فى النهاية إلى تجاوز الحيرة المعرفية هو طريق آخر للوصول إلى المعرفة اليقينية ،وبها يشن هجوما شرسا على التقليد ويدعو إلى استقلالية فى النظر،كما أن منهجه هذا يشجع على البحث عن الدليلواختبار الفروض والتحري والتثبت في كل ما نقول.

ويلاحظ أيضا أن الغزالي جعل منهجه فى المعرفة متكاملا لا يرى الاستغناء بوسيلة دون أخرى وإن كان على اعتقاد أن بعضها أصدق من بعض ،ولعل هذا أيضا يعد ميزة أخرى لمنهجه على منهج الغرب فى المعرفة .

واعتمد الغزالي فى منهجه على ما سماه -فى عرفه- بخاصية النبوة أو الولاية أو نور البصيرة أو المشاهدة أو الكشف أو الإلهام واعتبره أهم وسائل المعرفة لأنها بمثابة نور يقذفه الله فى قلب عبد من عباده به يعرف صدق الأنبياء لأنه قد انفتحت بصيرته واستطاع أن يستفيد من علوم الوحي المنزلة على الأنبياء ،غير أن الغزالي يرى أن هذه الولاية لا تنال إلا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتبدل الصفات ،ولا يتأتى كل ذلك إلا بالعلم والعمل المؤديان إلى السعادة الأبدية .

فإني لا أنسى هنا أن أوصي بالاستفادة من منهج الغزالي فى المعرفة فى تفجير طاقات الباحثين والموهوبين من الطلاب إذ مجرد العقل لا يكفي فى كشف أسرار الكون الكامنة فى مدلولات الكتاب والسنة ما لم تزكى النفس وتطهر الباطن فحينئذ ينكشف لنا ما خفيت لكثير من البشر من كنوز المعرفة التي تدفع بعجلة الأمة إلى الأمام،فبالإمكان تشجيع الأخلاق وتحفيز على الفضائل فى المدارس عبر المسابقات الخلقية كما يمكن تخصيص مادة لتزكية النفس فى كل المؤسسات التعليمية يتولى تدريسها

علماء متخصصون فى مجال التركية والسلوك ، حتى إذا سادت التزكية يسود المسلمو اليوم كما سادو بالأمس –والله تعالى أعلم.

وصل اللهم على خير خلقك محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

الهوامش والمراجع

1 –منير مرسى(محمد): فلسفة التربية اتجاهاتها ومدارسها ،عالم الكتب ،القاهرة ،1993م ، ص 42

2 – الغزالي : المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان ،الطبعة الأولى 2001م ، ص28 ، والمنقذ من الضلال ، المكتبة الشعبية ،بيروت لبنان ،دون تاريخ ، ص15 ، وإحياء علوم الدين ،مكتبة الصفا ،مطابع دار البيان الحديثة ،القاهرة ،الطبعة الأولى، ج2/420-422.

3 – عبد الحليم محمود : تحقيق والتعليق علي المنقذ من الضلال ،دار الطباعة الحديثة ص141

4 – لطفي بركات : المعرفة التربوية ،مطبعة العربي ،القاهرة ،الطبعة الأولى ص116

5 – منير مرسي : فلسفة التربية ،المرجع السابق ص 42- 53- 54 .

6 – جميس كولينز :الله في الفلسفة الحديثة، الناشر مكتبة غريب ، ص 50 .

James Daniel Collins : GOD IN MODERN PHILOSOPHY,Henry Regnery Company 1959,Chicago,Illinois.

7 – جميس كولينز :الله في الفلسفة الحديثة، المرجع السابق ص 51.

8 – جميس كولينز :الله في الفلسفة الحديثة ،المرجع السابق

9 – لطفي بركات : المعرفة التربوية ، المرجع السابق ،ص116-117

10 – الغزالي ،محمد بن محمد : ميزان العمل ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،الطبعة الأولى 1989م181-182.

11 – الغزالي : المقصد الأسنى 29 وما بعدها .

12 – الغزالي : المقصد الأسنى ، المرجع السابق 35

13 – الغزالي : المقصد الأسنى، المرجع السابق نفسه 36

14 – الغزالي : المقصد الأسنى 33-34

15 – الغزالي : المقصد الأسنى، المرجع السابق 34 ، والحديث أخرجه أصحاب السنن الأربعة و أحمد . انظر صحيح الترمذي 3/180

16- ابن كثير ،إسماعيل بن عمر : تفسير القرآن العظيم ، مؤسسة الريان ،مشروع مكتبة طالب العلم ،جمعية إحياء التراث الإسلامي ،الطبعة الرابعة 1998م ،المجلد الأول 411-412 ، المجلد الثاني 625 .

17 – الغزالي : المنقذ من الضلال 61

18 – الغزالي :إحياء علوم الدين 144/1

19 – لويس ملوف : المنجد معجم مدرسي للغة العربية،الطبعة الثانية عشرة ،نيسان 1951م، ص .126

20 –لطفي بركات : في المعرفة التربوية ، 116-117

21 – منير مرسي : فلسفة التربية ، المرجع السابق 43

22 –الغزالي : المنقذ من الضلال 12 وما بعدها

23 – المنقذ من الضلال ، المرجع السابق 15

24 – الغزالي : المقصد الأسنى 28

25 – النحلاوي ،عبد الرحمن : أصول التربية الإسلامية ص35-36

26 – محمد منير مرسي : فلسفة التربية المرجع السابق ص : (46) ، (163) ، (169) ، (236)

27 – الغزالي : إحياء علوم الدين 1/91-92 ، وانظر كذلك المنقذ من الضلال 67 .

28 – الغزالي : إحياء علوم الدين 1/ 91 إلى 94 ؛ ميزان العمل 126 ، معراج القدس 59

29 – الغزالي : المنقذ من الضلال 15-16

30 – الغزالي : المنقذ من الضلال 16-17 .

31 – الغزالي : المنقذ من الضلال 73 .

32 – زكريا بشير : فلسفة نورانية القرآنية عند الغزالي 191

33 – السفسطة و السفسطة : الاستدلال و القياس الباطل أو الذي يقصد به تمويه الحقائق .. المنجد 347

34 – الغزالي : المنقذ من الضلال 17

35 – الغزالي : المنقذ من الضلال 17

36 – الغزالي : إحياء علوم الدين 94/1

37 – المرجع السابق 430/2

38 – الغزالي : ميزان العمل 59

39- أي إيمان العوام الذي كان مبنياً علي التقليد المحض ــ الإحياء 429/2-430

40 – الغزالي : المنقذ من الضلال 23 ، و الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه- رواه البخاري في الجنائز باب 93,80، ومسلم في القدر حديث 22 و .25

41 – الغزالي: فضائح الباطنية 70 ، وكتاب الأربعين في أصول الدين 45

42 – الغزالي :إحياء علوم الدين 429/2-430 ، كتاب الأربعين 45 ، المنقذ 66

43 – الغيب هنا ليس إلا ما غاب عن الحواس و العقول لدقته ورقته، من العلوم و الأحوال و غيرها ، و يعدّ ذلك كرامة للأولياء و الصالحين ، والكرامة أمر لا يجحد فى الإسلام لكونها معروفة مشتهرة فى سير صالحي هذه الأمة المحمدية . الباحث .

44 –قد يستخدم الإمام الغزالي كلاً من هذه المصطلحات الثلاثة علي حدة ، فى مواقف مختلفة حسب ما يقتضيه سياق كلامه ، ولا تزال علاقة المشترك المعنوي بينها قائمة .

45 – الغزالي : المنقذ من الضلال 68 ، و إحياء علوم الدين 388/3 .

46 – الغزالي : ميزان العمل 19-21

47 – الغزالي : المنقذ من الضلال 70

48 – الغزالي : إحياء علوم الدين 169/1

49 – المرجع السابق الصفحة نفسها.

50 – هو يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب ، و أول فلاسفة فى الإسلام ، يرجع نسبه إلى يعرب بن قحطان ، من عرب الجنوب، وكان أجداده ملوكا علي كندة ،ولد حوالي سنة 185 هـ ،(تاريخ الفكر الفلسفي فى الإسلام لأبي ريان ص219)

51 – محمد كمال إبراهيم جعفر : فى الفلسفة الإسلامية ،مكتبة الفلاح ،الكويت ،الطبعة الأولى 1986م، ص.178

52 – علي راشد : الجامعة والتدريس الجامعي ص117 ، ط 1، 1408 هـ- 1988م ،دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة ، جدة ، المملكة العربية السعودية .



D+P: IBY PRINTS, KEFFI
08066490378

ND/THESIS DIGITIZATION/2019-22